الفلسفة

والانتخاب الطبيعي

هذا جزء من فصل من كتاب « الالوهية والتفكر » تأليف آرثر جيمس ، إرل أوف بلفور ، الذي ترجمه محرر هذه المجلة وهو الآن تحت الطبع .

- Theism and Thought, Arthur James, Earl of Balfour.

كانت نظرية الانتخاب الطبيعي من الانتصارات العظمى في القرن التاسع عشر . وبالرغم من حقيقة انه في ضوء البحوث التي تلت ذيوعها ، لم تظهر انها قادرة على تحقيق كل ما توقعنا منها ، فان ذلك لا يزلزل مكانتها باعتبارها نقطة تحول في التفكير العلمي .

الى هنا وبالقدر الذي يهم من وجهة هذا البحث ، نلحظ نقصاً مستباناً فيه ، بالرغم مما قد نقدر له منه قيمة باعتباره اداة تطورية ذات أثر بيّن ، ظلت عاملة خلال دور زماني قصير نسبياً . نحن هنا نزن تلك الشبكة العياتية التي تصل معتقدات العصر الحاضر ، أي معتقداتنا جميعاً ، بالمادة والطاقة في حالة توزعهما القديم الأولي — أي كما كانت في العصر السديمي قبل أن تتكوّن الأجرام السماوية . في فترة مجهولة لدينا ، وبالحري فترة غير معروفة ، وفي مدى ذلك التطور النشوئي ، برز سيار هيأ مجموعة من الخصائص والحالات التي يعرفها العلم في حالته الحاضرة ، وكان من طبيعتها أن تنطوي على الحاجات الضرورية اللازمة لتنشئة صورة ما من صور الحياة العضوية . في الطور الذي قطعه ذلك السيار مستكملاً العدة لتنشئة الحياة ، لم يكن هنالك من محل للانتخاب ، وكذلك لم يكن للانتخاب من أثر في تهيئة المدرج التالي من مدارج التطور — وأعني به ذلك المدرج الذي شهد بدء الحياة ، وهو أعظم المدارج الانقلابية جميعاً . قبل وقوع ذلك الحادث الانقلابي ، لم يكن لنا من معرفة بما يضاف من جملة الاشياء أو يستخلص منها . ان عوالم لا عداد لها ولدت ثم بادت . ولكن أعظم ما وقع من نكبات وأحداث في عالم الأجرام ، لم يتجاوز حد أنه توليف

مُعاد فما كان موجوداً بالفعل . تتالت التغيرات وحدة إثر أخرى ، على مقاس من الفخامة والضخامة قدما يتصور . غير أن علة هذه التغيرات الفوزيقية ، لم تأت بجديد فيه صفة الاصالة والجوهرية . لم يكن في النتيجة من شيء ، تشكل بصورة أو بأخرى ، لم يسبق له وجود في العلة . والكون لم يأت بشيء جديد ، اللهم إلا اعادة تنسيق نفسه . ولكن ببزوغ الحياة بدأت دورة جديدة . ومهما يكن من أمر ما اعتنق من فكرة ، فلست أدعي هنا ان الحياة ، حتى في أدنا مدارجها ، أكثر من توزيع ضروب خاصة من المادة صبّت في قوالب معينة ، وأن أفعالها وأركاسها [1] جميعاً ، قد تفسر بمقتضى من الكيمياء والفوزيقا تفسيراً كاملاً . فعلى أي وجه تقلب هذا الرأي ، فلا شك يساورنا مطلقاً في حقيقة الشعور والفكر والارادة . فان هذه الأشياء كانت دائماً زوائد على مجرد إعادة توليف المادة في صور مّا . وهي فوق ذلك أشياء ، بقدر ما لأرضنا هذه من صفة الحدوث الزماني جديدة — نعم جديدة وانها لباعثة على أشد العجب .

لم يكن للانتخاب الطبيعي من أثر في ابراز هذا المتجه الجديد . كما انه لم يكن له من يد في أن يحدث حدثاً يسير به قدماً عند ما بدأت الحياة بالوجود . ولكن عند ما أصبحت تلابس عضويات من طراز ملائم . فعند ما وجدت ، بطريقة غير محدوسة (أ) مركبات عضوية معقدة (ب) ليس لها صفة الحياة لا غير (ج) بل تكاثرت (د) وفي تكاثرها استحدثت أعقاباً لها بها ، على اطلاق القول ، مشابهة ، ولو أن هذه المشابهة (هـ) صحبتها تغيرات (و) متوارثة : قبل أن تقع هذه الأحداث الجسام وتأتلف ، لم يكن في مستطاع الانتخاب الطبيعي أن يعمل وأن يبرز تلك المستحدثات الاحيائية ، التي يحاول البحث العلمي اليوم ، بجهد بالغ ، أن يفصح عن أسرارها المعقدة .

***

من هنا يتضح أن تدخل الانتخاب الطبيعي في السّوْق العلّي للأشياء تدخلاً من شأنه أن يزوّد العقل الانساني ، حتى بما يشاكه أصلاً عقلياً ، قد بدأ مؤخراً في تاريخ

(1) Actions and Reactions

الكون . ولكن لديّ شيء آخر أقوله . فان تحقيقه لا يبدأ بتحقيق هذا الغرض مؤخراً جداً لا غير ، بل انه ينتهي مبكراً جداً أيضاً . فان أفعاله التأثيرية تموت وتمحى سريعاً ، حتى ليعجز عن الافصاح عما ينبغي الافصاح عنه ، وأعني بذلك الافصاح : عن مثاليات الحب والحسن (الجمال) والمعرفة .

بالنسبة لي تظهر هذه المسألة كأنها ثانوية القيمة ، فان تلك الاشياء الباهرة العظيمة ، اذا كانت في غائيتها ، هي من عمل اللاعقل ، فانه لا يعنيني إلاّ قليلاً اذا كان صدورها المباشر راجعاً إلى اللاعقل ملابساً صورة من الانتخاب الطبيعي محوّراً فيما يشبه القصد ، أو أسفرت في صورة مصادفة مكنونة . ان النتيجة بقدر ما يعنيني واحدة ، ولكنّ هنالك من يقتبلون قبلة أخرى . هم يطلبون تفسيراً علمياً . أعطهم هذا ، وهم بعد لا يُعنَون بما يكون واقعاً بين العلة والنتيجة من التفكك وعدم الالتئام . ولذا تراهم قانعين راضين ، ما أثبتَّ لهم ان خصائص أية محصّلة من المحصّلات التطورية ، تتضمن قيمة بقائية ، وتقتضي نظرتهم هذه تمحّي كل القيم الاخرى ، ولا تساوي عندهم دانقاً ولا سحتوتاً . يكتفون بأن أسمى وأندر ما في الجمال والاخلاق والفكر ، أشياء لا تفعل للانسان ، إلاّ ما تفعل الوصائل الخسيسة لأقل كائن طفيلي حقير — بمعنى انها تساعد على الاغتذاء والتكاثر .

***

إن هؤلاء المفكرين لا يعوزهم الافراط في الطمع . ومع هذا فاني أشك في أن مراميهم على تواضعها ، قد تحققت في مثل هذه الدنيا التي نعيش فيها . انهم يخطئون اذ يفرضون ان هذه القيم العليا ذات أهمية في التناحر على البقاء . فالقديسون والفلاسفة والفنانون ، لم ينجحوا اطلاقاً ، على قدر علمي ، في أن ينشئوا أسراً كبيرة بأنفسهم . وكذلك هم لم يساعدوا الجميعات التي فتنت بهم وأخرجتهم الحين بعد الحين ، من أن يبذوا كثرة ونملاً ، غيرها من الجميعات في بقاع أخر من الأرض . وتقتضي قياس الطبيعة للنفعة ، هم لا فائدة منهم . انهم ليسوا من حيث ذلك ، أكثر من عاهات خبيثة في مجمل المحصّلة التطورية ، ولا يكونون جزءاً من نسيجها الجوهري . انهم ، بناء على فرضية المادية الطبيعية ، حَدَثُ اتفاقي ، أنتجه حَدَثٌ مثله .

ليس في الناحية الروحانية للتطور من شيء هو أعجب من هذا. وربما لا يكون عجيباً ان هذه الحركة الاستدراجية التي مضت فيها هذه النشوءات، والتي أدَّت الى النجاح الأحيائي، قد تذهب بها إلى آفاق تُضحِّي فيها كل كفاياتها البقائية أو جُلّها. ولكن العجب الحقيق انه في هذه الآفاق، أو في بعضها على الأقل، قد تحوز قيماً أجود وأرفع، بحيث تعجز المادية الطبيعية عن الافصاح عنها أو تقصر وجودها ببيان. فالديانات البدائية، بما فيها من الخرافات والأوهام التعجّة. والخاقات والإفراطات، قد يكون لها قيمة، تلبس تلك الصورة التي يقرها الانتخاب الطبيعي. وربما تكون قد ساعدت الانسان، بصور متفرقة، مساعدة مباشرة في مدارج حضارته الأولى، ان يحتفظ بعدده، أو أن يكثر ويزداد. ولا شك مطلقاً في ان هذا يصدق أيضاً على الخُلُقيّات البدائية، وعلى العلم البدائي. وربما صدق أيضاً على الفن البدائي. لهذا نقول إن الاحيائيين[١] الذين يعالجون علم الاجيال[٢] على أنه فرع من علم المواليد[٣]، محقون في اعتبار أن هذه الأشياء قد تعود بعض الشيء الى التناحر على البقاء. ولكن التناحر على البقاء ليس له تأثير مباشر على مدارجها النشوئية العليا. فأية قيمة بقائية مثلاً لحب الله كما نباشره في الممارسات الدينية العليا؟ وأية فائدة تلك التي جناها انسان ما قبل التاريخ من ان كفاياته العقلية وتصوره، تلك التي نلمح ان بداياتها الدنيّة قد رُبّيَت تدريجاً في أسلافه بعوامل الحرب والجوع والمرض، قد تتحوّر فتنشأ منها تلك الكفايات، التي هي بعد مرور آلاف من السنين، سوف تيسر لأخلافه سبيل العمل والنجح، في تتبع خطا معرفة هي الى التجريد الصرف، والبعد عن الكسب المباشر، وهي لأول وهلة معدومة القيمة مادياً؟ وأي تأثير شامل، من حيث الاحتفاظ بالنوع، حدث بنشوء صفة الحب الخيالي الخالص من ذاتيات الشهوة الحيوانية؟ واذا سلمنا بأن الانتخاب الطبيعي قد يكون له أثر في تنشئة العطف العائلي والطاعة القبليّة، فلأي شيء تزدهر هذه الصفات فتصير رحمة برية قوية تشمل في دائرتها كل النوع الانساني، وهي فوق ذلك، تخص من يدعون غير الصالحين، لا الاصلحين، بعطف أكبر وحنان أعظم؟

Natural History (٣) Anthropology (٢) Anthropologists (١)